



فلسفة الأخلاق في الإسلام من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة

د. أحمد محمد رحومة

قسم أصول الدين- كلية العلوم الشرعية – مسلاته - الجامعة الأسمرية الإسلامية

arahouma215@gmail.com

المقدمة:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾⁽¹⁾.

والصلاة والسلام على من تلقى من ربه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾⁽²⁾، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فمنذ بدأ الإنسان حياته على ظهر هذه الأرض وهو يحاول ما استطاع أن يعيش آمناً مطمئناً لا يروعه ولا يحول بينه وبين ما يسعى إليه من رغد وسعادة حائل ما، وكانت محاولات ذلك الإنسان تتضاعف كلما نما عدده، وتكاثر أفرادها، وتعددت مشكلاته، ومن ثم عرفت البشرية عبر مراحل تاريخها المختلفة فلاسفة وعلماء عكفوا في رهينة على وضع التعليم والقيم التي تكفل للمجتمع الإنساني كل ما يحفظ على الإنسان آدميته وكرامته واستقرار حياته. ولم يصل هؤلاء الفلاسفة والعلماء سواء في القديم أو الحديث إلى تحقيق الحلم الذي راود خيالهم؛ لأنهم من جهة لم ينطلقوا في تفكيرهم من مبادئ ثابتة غير متأثرة بالأهواء الذاتية؛ ولا تعكس ثقافة الزمان أو المكان، ولأنهم من جهة أخرى كانوا مثاليين مسرفين. وكأن كلا منهم قد جلس في برجه العاجي،

1 (سورة الكهف / 1.

2 (سورة فصلت / 33.

وأمسك بقلمه ليسطر به فوق قرطاسه أسساً لمجتمع فاضل دون معايشة لمجتمعاتهم ، ولا معرفة دقيقة بحاجات كل مجتمع ورغباته وظروفه وما يناسبه من إصلاح وما يسير به رويدا رويدا نحو الكمال⁽¹⁾ .

إن حلم المجتمعات ظل أمنية، وأملا لدى كل المفكرين دون أن يعرف طريقه إلى دنيا الناس واقعا ملموسا، وذلك لما أومأت إليه أنفا من أسباب . أما الطريق الأمثل إلى المجتمع الذي يسوده الحب والإخاء، والوئام والسلام، مجتمع الفضيلة والعدالة، والتكافل والتعاون على الخير والبر، ومجتمع كالبنين المرصوص يشد بعضه بعضا فهو الذي جاء به وحي السماء، لأنه من لدن خالق الإنسان الذي يعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، كما يعلم ما به صلاحه وفلاحه واستقامة أمره وسعادته في الدنيا والآخرة . لقد كان من رحمة الله بخلقه أنه لم يدعهم - على ما منحهم من طاقات فكرية - إلى أنفسهم يضطرون في الحياة على غير هدى ، وإنما أرسل إليهم أنبياءه ورسله مبشرين ومنذرين ، وتتابع هؤلاء منذ آدم عليه السلام إلى خاتم المرسلين محمد - ﷺ - . وكان ما بعث به هذا النبي الأمي هو الصورة الأخيرة والكاملة لبناء المجتمع الإنساني إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، ومن هنا كان القرآن الكريم دعوة الله إلى الناس كافة، وكان الكتاب السماوي الوحيد الذي حفظه منزله من التحريف والتبديل، وسيضل كذلك إلى يوم الدين ، منارة للقوة والعزة والحياة الإنسانية الكريمة .

ولقد كانت الآثار التي قدمها علماء الإسلام في الماضي والحاضر محاولات طيبة تنير الطريق في فهم القرآن والكشف عما تضمنه من قواعد ومبادئ يتأسس عليها المجتمع الذي يمثل الخيرية والأسوة في كل مجال من مجالات الحياة النافعة .

وقد رأيت أن أحاول محاولة متواضعة في هذا المجال، مجال فلسفة الأخلاق في بناء المجتمع الإنساني بناء متكاملا لا يعرف الإفراط أو التفريط، وبخاصة ونحن نعيش صراعا طغت فيه المذاهب الوضعية، وكثر فيه الجدل حول ما ينبغي أن يكون؛ درءا للكارثة التي ستبيد البشرية إبادة كاملة إلا إذا تداركتها عناية الله .

ولا شك أن كل فضيلة دينية هي بالضرورة فضيلة خلقية محمودة شرعا وعقلا هي كذلك فضيلة يقرها الدين ويدعو إليها وإن كان مصدرها إنسانيا، فكل ما ينفع الناس تحرص عليه الشريعة الإسلامية ، ولا غرو في ذلك، لأن الدين

(1) انظر مجلة الأزهر، المجلد العشرون، ص478.

الإسلامي إنما هو : تصديق وتطبيق ، وإيمان وعمل، وعقيدة وعبادة وشريعة وأخلاق .

قال - تعالى- : ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾⁽¹⁾

وقال عليه - الصلاة السلام- في تعريف "الإحسان" كسنام للعبادة والعمل والأخلاق : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تره فإنه يراك)⁽²⁾ .

لا يشك عاقل فيما يعانيه هذا الجيل من الاختلال والاضطراب وهو يتشابك في طغيانه وامتداده فلا يكاد يخلو منه على وجه المعمورة مكان، ولا منقذ له إلا ما شرع الله من المبادئ والأخلاق الحميدة .

إشكالية البحث.

تتمثل إشكالية هذا البحث فيما ينسب إلى الإسلام من بعض الفلسفات التي لا تنتمي إليه، بل قد تكون بعيدة عن مصادره وقواعده وكلياته، وليس منها إلا ذاك النسب المشوه.

فالأخلاق وفلسفتها لم يكتب لها البقاء ولا التبنّي البشري إلا إذا كانت مستوحاة من مصادر لا تعرف الأهواء ولا تميل إلى التعنصر بحال، ولا يوجد ذلك إلا في مصادر مستقلة ذات شمولية تتمثل في الوحي الإلهي من كتاب وسنة.

ومن هنا إشكالية هذا البحث هي كيف يمكن الرجوع إلى تلك المصادر وتجاوز الحلول الفكرية البشرية بمنهج القرآن والسنة.

المنهج المتبع .

إن المنهج المناسب لدراسة هذه الإشكالية هو المنهج التاريخي الوصفي إلا أنه باعتبار أن هذه الدراسة فكرية فلا بد أن تتعاون فيها المناهج جميعها التي حددها العلماء؛ وهي التحليل والتركيب والاستدلال بأنواعه، ومن هنا كان الإسلام جديراً بأن يكون خاتم الديانات، وبالتالي فهو أفضل وأصلح المناهج

(1) سورة القيامة / 14 .

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب معرفة الإيمان والإسلام، رقم الحديث 36/8، 1

لإصلاح المجتمع وإبعاده عن مضان الهوى، وهذا ما دعاني إلى الإسهام في هذا الجانب.

وقد تناولت هذا البحث على النحو الآتي:
المقدمة، وتشتمل على أسباب اختيار الموضوع والدراسات السابقة وإشكالية البحث والمنهج المتبع. وهيكلية للبحث على النحو الآتي:

المبحث الأول : مفهوم الأخلاق وأهميتها في بناء الإنسان .

المبحث الثاني : فلسفة الأخلاق ومكانتها في الإسلام.

المبحث الثالث : الأخلاق والإيمان .

المبحث الرابع : الأخلاق وآليات رسوخها في النفوس.

المبحث الخامس: غاية الأخلاق الإسلامية تحقق السعادة في الدارين.

الخاتمة وتشمل على النتائج والتوصيات وثبت للمصادر والمراجع .

المبحث الأول: مفهوم الأخلاق وأهميتها في بناء الإنسان .

لقد جبل المولى - سبحانه وتعالى- الإنسان، دون غيره من المخلوقات، على الميل الفطري بالأخلاق وهداه إلى معرفة محاسنها ومساوئها، ويسر له كسبها وتقويمها، حتى يلتزم بالأخلاق الخيرة فيثاب عليها، ويتجنب الأخلاق الشريرة فلا يحاسب عليها .

قال - تعالى-: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾⁽¹⁾ .

وقال - سبحانه : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾⁽²⁾ .

وقال عز وجل- : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾⁽³⁾ .

الأخلاق في اللغة .

الخلق بالضم : السجية والطبع والمروءة والدين⁽⁴⁾ .

قال - تعالى- : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾⁽⁵⁾ .

وفي لسان العرب : الخلق : بضم اللام الطبيعة، وجمعها أخلاق، والخلق بضم اللام وسكونها : السجية، وقال: الخلق بضم اللام وسكونها هو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه وصف لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها ،بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ، ولها أوصاف حسية وقبيحة، والحسن والقبح يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة⁽⁶⁾ .

(1) البلد / 10 .

(2) الإنسان / 3 .

(3) الشمس / 7- 10 .

(4) البحر المحيط للفيروز آبادي ، ص 881، (مادة خلق).

(5) القلم / 4 .

(6) لسان العرب، لابن منظور، ج 2، ص 1245، (مادة خلق).

الأخلاق في الاصطلاح .

لا يختلف معنى الخلق في الاصطلاح عن معناه في اللغة . فمن التعريفات المناسبة للأخلاق، والتي يمكن الاستئناس بها في تقريب مفهومها وإدراك معانيها هي تلك التعريفات التي وضعها بعض المفكرين المسلمين والتي تتماشى مع مفهومنا العصري للأخلاق . فقد عرفها ابن مسكوية ⁽¹⁾ بقوله : ((الخلق حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا روية)) ⁽²⁾ .

ويزيد أبو حامد الغزالي ⁽³⁾ هذا التعريف ، بإضاحا وشرحا ، فيعرف الأخلاق، بقوله : ((فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدرها الأفعال بسهولة ويسر ، ومن غير حاجة إلى فكر وروية)) ⁽⁴⁾ .

وقد وضع "إخوان الصفا" ⁽⁵⁾ . تعريفا للأخلاق مشابها لتعريف ابن مسكوية والغزالي ، ووسعوا مفهومها ، فقالوا عنها : ((الأخلاق المركزة في الجبلية هي تهيب ما في كل عضو من أعضاء الجسد، يسهل به على النفس إظهار فعل من

¹ هو : أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب المعروف بابن مسكوية (320هـ / 421) الموافق (932-1030) طبيب ولغوي ومرب، وضع عددا من الكتب في الفلسفة والتاريخ والأخلاق والتربية، ومن أهم كتبه الأخلاقية التربوية: تهذيب الأخلاق، ورسالة وصية لطالب الحكمة" ، وقد تأثر ابن مسكويه بالفكر اليوناني ، وحاول التوفيق بين الفلسفة اليونانية والدين الإسلامي، (د محمد ناصر/ الفكر التربوي العربي الإسلامي / ص119) .

² (د محمد ناصر، الفكر التربوي العربي الإسلامي ، ص144.

³ (هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد ، حجة الإسلام، فيلسوف متصوف، ولد بقصبة طوس بخراسان، سنة 450هـ / 1085م ووفاته بها سنة 505هـ / 1111م ، رحل إلى نيسابور وبغداد والحجاز وبلاد الشام ومصر ، وعاد إلى بلده، له نحو مئتي مصنف، منها تهافت الفلاسفة ، والاقتصاد في الاعتقاد ، ومعارج القدس في أحوال النفس، والمنقذ من الضلال، وجواهر القرآن، وبداية الهداية والمقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وغيرها كثير ، وقد ألف مفكرون كثيرون في الغزالي وكتبه وفكره مؤلفات عديدة (الزركلي ، الأعلام ، 7 / 247)

⁴ (الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 3/ 72-73.

⁵ (هم جماعة من المفكرين والفلاسفة ظهوروا في البصرة (في القرن الرابع هجري الموافق القرن العاشر ميلادي) وألفوا جماعة سرية كانت تدين بمذهب سياسي معين ، ويتشيعون لآل البيت ، ويبثون أفكارهم في مختلف الأقطار الإسلامية .

ويقول البعض بأنهم من الباطنية أو الإسماعلية ، وكانوا يرون أنه لا تعارض بين العقل والفلسفة والدين ، وكانوا متأثرين بالفلسفة اليونانية، وقد صنفوا كتابا في الحكمة الأولى ، ورتبوه مقالات عدتها إحدى وخمسون مقالة .د. محمد ناصر، الفكر التربوي العربي الإسلامي ، ص179 .

الأفعال، أو عمل من الأعمال ، أو صناعة من الصنائع ، أو علم من العلوم ، أو أدب من الأدب ، أو سياسة من غير فكر ولا روية⁽¹⁾ .

وبتحليل هذه التعريفات الثلاثة ، نجد أنها تشير إلى أن الأخلاق هي : هيئة في النفس ، أو حال لها ، تتميز بالرسوخ والثبات ، وتصدر عنها الأفعال والتصرفات والسلوك بشكل طبيعي ميسور لا تكلف فيه ولا تصنع . ويؤكد هذا المعنى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على أن الأخلاق " نابعة من النوايا أو القلوب" ويتحمل الإنسان الراشد المسؤولية الكاملة عنها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

قال تعالى ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴾⁽²⁾ .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"⁽³⁾

وقال - عليه الصلاة والسلام- : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم "⁽⁴⁾ .

وهكذا يتضح لنا أن مفهوم الأخلاق في الدين الإسلامي ، ينصب على " السلوك الإرادي " للإنسان والذي يقع في دائرة اختياره ونطاق قدرته على فعله أو تركه ، وهو مسؤول عنه لما خصه الله تعالى به من عقل وميزه من حرية وإرادة واختيار فيما يتعلق بأفعاله الإنسانية حتى يصير سلوكاً مطبوعاً في نفسه.

قال - تعالى - : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾⁽⁵⁾

¹ د. محمد ناصر، الفكر التربوي العربي الإسلامي ، ص227.

² (الطور / 21 .

³ (أخرجه البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله - ﷺ - رقم الحديث 10/1،(1).

⁴ (أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب القناعة، رقم الحديث(4143) 2/ 1388.

⁵ (فصلت /46.

وقال سبحانه ﴿ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنَتْكُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (1) .
وعن سفيان بن عبدالله الثقفي ، قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحد بعدك ، قال : (قل آمنتم بالله ، ثم استقم) (2) .
ويحكم على أفعال الإنسان وتصرفاته من حيث اتصافها بالاستقامة والخير والحسن والفضيلة والحق ، أو اتصافها بالمعصية والشر القبيح والرذيلة والضلال ، ويحدد له نوع الجزاء الوفاق الذي يستحقه ، مع توفر حرية الإرادة والاختيار للإنسان فيما آتاه من تصرفات وأبداه من سلوك وألا يكون مكرهاً أو مجبراً على ما يفعله .
قال تعالى ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (3) .

وعن جابر ابن عبدالله قال رسول الله - ﷺ - : " من سن في الإسلامي سنة حسنة فيعمل بها بعده ، كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة وعمل بها بعده ، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء " (4) .
والمعيار الصحيح للحكم على السلوك الإنساني . بالخير والحسن ، أو بالشر والقبح ، هي المثل والمبادئ والقيم الروحية والخلقية التي هي غاية الأخلاق والدين معاً .
ومن لطف الله - سبحانه - بعباده ، ورحمته لهم وشفقته عليهم ، وعدم تركهم لأنفسهم وتقديراتهم الشخصية التي قد تخرج بهم عن سواء السبيل ، رسم لهم " معالم " فلسفية أخلاقية إنسانية فاضلة سامية في الخاتم لكتبه المنزل " القرآن الكريم " طبقها الرسول الخاتم الأمين - ﷺ - بشكل حي ومجسد في سنته المطهرة وسيرته العطرة ، وكلما رجع الإنسان المسلم إلى القرآن والسنة كلما زوداه بالهداية الربانية ، والقوة الإيمانية ، وحفزه على طبع نفسه بطابع الأخلاق المحمدية المتكاملة التي جمعت بين الجانبين النظري والتطبيقي .

¹ (الإسراء / 7) .

² (أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان باب جامع أوصاف الإسلام رقم الحديث (38) ، 1/ 65 .

³ (الزلزلة / 7-8 .

⁴ (أخرجه مسلم ، كتاب العلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ، رقم الحديث (2398) / 4 .

قال - تعالى-: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (1)
وقال رسول الله - ﷺ -: " أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد " (2) .

ومن مسؤولية الإنسان، المميز بالعقل والإرادة والحرية والاختيار دون غيره من المخلوقات، أن يقوي وازعه الخلقي الذاتي ، بنفسه وإرادته ؛ لأنه قادر على ذلك وهو مسؤول عنه في الدنيا والآخرة ؛ وبحيث يتكون لديه " ضمير خلقي حي " ينبض بين جنبه بصورة دائمة، ويلزمه ذاتيا بالخلق القويم في حضور سلطة الضبط الخارجي أو غيابها .
والإنسان المسلم المستقيم ، بوحى من ضميره الحي ، يراعي ربه - ﷻ - في الإظهار والاضمار ، فيزيده هدى وإيماناً ، فتسمو روحه ، وتزكو نفسه ، وترقى أخلاقه ، ويتحصن ضد عوامل الغواية والفساد وتيارات الضلال والانحلال .

قال - تعالى-: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (3) .
وقال - سبحانه-: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (4) .

ومما تقدم يتبين لنا أن القرآن الكريم والسنة يزخران بالقواعد الخلقية : النظرية والعملية : التي تشمل أحوال الناس في دينهم ودنياهم، وعبادتهم ومعاشهم ، وعلاقاتهم ومعاملاتهم ، وآدابهم وعاداتهم ، ومواقفهم واتجاهاتهم .
وإذا كانت الأديان السابقة قد وجهت إلى شعوب معينة، فإن الدين الإسلامي وجه إلى البشرية قاطبة ، يحمل إليها كلها الهداية ، ويدلها على الصراط المستقيم في العقيدة والخلق والحياة ، ولم يميز بين أمة وأمة ، ولم يفاضل بين شعب وشعب ، بل كل الخلق أمام الله سواسية ، أفضلهم عنده أنقاهاهم .
قال - تعالى- في شأن عالمية الدين الإسلامي : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (5)

¹ (الإسراء / 9) .

² (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والجمعة، رقم الحديث (867)/ 2/ 592 .

³ (القيامة: 1 - 2 .

⁴ (فصلت/ 33 .

⁵ (آل عمران/ 19)

وبشأن إرسال سيدنا محمد - ﷺ - إلى الناس أجمعين ، قال - عز وجل - :
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ (1) .

وفي شأن نظرة الدين الإسلامي إلى البشر كافة ، على حد سواء ، بلا تمييز في لون أو جنس أو عرق ، وأن لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى .
قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (2) .

وقال الرسول - ﷺ - : ((انظر ، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى)) (3) .

إن عالمية الدين الإسلامي ، وتوجيهه إلى البشرية قاطبة هي ميزة للإسلام دون غيره ، فهي خالدة باقية له ، إذ أن الأديان التي سبقتها نزلت إلى أقوام معينين " كاليهودية والنصرانية " وكذلك الديانات الوضعية : "البوذية" و "الكونفوشيوسية" و "البراهمة" وما إليها ، أما "الإسلام" فقد عرف بأنه "دين الله سبحانه" : بنص كلام الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (4) ، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (5) .

وحتى أعداء الإسلام أو ممن يضمرون له الكراهية ، أو ذوو النظرة المغرضة إليه ، انطقهم الله - تعالى - بالحق من حيث شاءوا أم أبوا ، ليشهدوا بأنه دين الخير والرحمة والخلق الكامل .

يقول المستشرق الألماني (جولد زيهر) " إذا أردنا الإنصاف فينبغي أن نؤمن بأن في مذهب الإسلام قوة صالحة توجه الإنسان نحو الخير ، وأن الحياة المتفقة مع التعاليم الإسلامية حياة أخلاقية لا غبار عليها ، وذلك أنها تتطلب الرحمة نحو جميع مخلوقات الله ، والوفاء بالعهود ، والمحبة والإخلاص وكف غرائز الأنانية" (6) .

¹ (سبا/ 28).

² (الحجرات/ 13).

³ (ذكره المتقى في كنز العمال ، رقم الحديث (5632)، 1/ 115 .

⁴ سبق تخريجها.

⁵ (آل عمران/ 85).

⁶ (د . أحمد فؤاد الأهواني ، التربية في الإسلام ، ص115 . ((والمستشرق يرى أن الإسلام مذهب وهو ليس كذلك بل هو دين سماوي ومصدره الوحي الإلهي)).

ورغم دس هذا المستشرق على الإسلام في ثنايا هذه الأسطر ، إلا أنه لم يملك إلا أن يشهد لأخلاق الإسلام بالسمو والرفعة والكمال الإنساني في الحياة . قال - تعالى- : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

وخلاصة القول أن هذا الدين أحاط بالإنسان سياجاً منيعاً ليعيش في أمن واستقرار في حياته الدنيا يتمثل هذا السياج في التشريع الإسلامي بكل جوانبه التي تقود إلى هذه العناية والأخلاق والالتزام بالأحكام ، وأخذ العبر من القصص القرآني لكي يصبح الإنسان سوياً في الظاهر والباطن .

المبحث الثاني: فلسفة الأخلاق ومكانتها في الإسلام .

تعتبر الفلسفة الخلقية فلسفة عملية ؛ لأنها تقصد إلى تحصيل علم تحته عمل، بمعنى أنها تهدف إلى معرفة ماهية الخير، وماهية الشر ، والمقياس الذي يقاس به كل منهما ، وهذه المعرفة تتطلب عمل الخير ، وتجنب الشر إذا توافرت لصاحبها الإرادة الطيبة ، بخلاف الفلسفة النظرية فإنها تقصد إلى تحصيل معرفة أو علم يعتقد الإنسان ويؤمن به فقط كالفلسفة الإلهية التي تبحث في العلم الإلهي .

ومعنى هذا أن الفلسفة الخلقية ليست مجرد نظر عقلي يستهدف تعريف الفضيلة، أو تحديد ماهية الخير فقط ، بل لابد أن تأخذ على عاتقها أيضاً مهمة العمل على إيقاظ الحاسية الخلقية لدى الناس، وتقوية القدرة الروحية فيهم على فعل الأفضل، والمشاركة في تربية الإنسانية وتكميلها بوجه عام . والواقع أننا لو أمعنا النظر في الفلسفة الخلقية لوجدنا أنها منذ البداية تهدف إلى الإجابة عن السؤال الآتي : ما الذي ينبغي لنا أن نعمله ؟.. وحين نطرح هذا السؤال فإننا نكون بإزاء شيء غير متحقق، أو غير واقع ، لأنه لا يملك وجوداً سابقاً في ذاته ، وهذا الشيء لا يكتسب الوجود إلا من خلال فعلنا ، ولكن المشكلة الخلقية لا تكتمل كما يقول أحد المفكرين ((في العمل نفسه بل فيما نعمل ، أي أن هذا الذي لا بد لنا من أن نوجه نحوه كل نشاطنا العلمي ، ولا بد أن يقوم الفكر – عندئذ – بدوره في تصور الفعل الذي سيكون علينا أن نحققه

¹ (التوبة/ 33 .

((¹) ، ومعنى هذا أن الفعل قبل أن يحدث عبارة عن معرفة عقلية تقوم على قواعد ملزمة ، وقيم موضوعية ذات أهداف مقصودة لذاتها . وعلى ذلك يمكن القول بأن الفلسفة الخلقية تجمع بين ((النظر)) و((العمل))؛ لأن العمل لابد أن يستند إلى نظر أو فكر يقوم عليه ، وقد كان الفلاسفة القدماء يتحدثون عن ((فلسفة نظرية)) تحقق كمال ((القوة العاملة)) و((فلسفة عملية)) تحقق كمال ((القوة العاملة)) وكانوا يرون أنه ((لا يتم أحدهما إلا بالآخر ، لأن العلم مبدأ ، والعمل تمام ، والمبدأ بلا تمام يكون ضائعاً والتمام بلا مبدأ يكون مستحيلاً))⁽²⁾ . فالنظر يهدف إلى توجيه السلوك وإرشاد الناس إلى الخير والفضيلة، والعمل نشاط واع قائم على رؤية وتفكر وتعقل وتدبر وإحساس بالقيم ، ووزن صحيح للأمور .

ووظيفة الفلسفة الخلقية – في رأي الكثير من الفلاسفة – وضع مثل أعلى يسير بمقتضاه السلوك الإنساني بما هو كذلك – أي مجردا من الزمان والمكان – ويكون ملائماً لأسمى جانب في الطبائع البشرية – وهو الجانب العاقل المشترك بين كافة البشر – يلتقي على طريقة الناس في كل زمان ومكان، برغم الاختلافات التي تفرق بين بعضهم في المعتقدات الدينية والمستويات الثقافية والحضارية والطبقات الاجتماعية ، فالناس جميعاً ينشدون - كما يقول أحد المفكرين (3) – ((القيم العليا التي تقضى بتأدية الواجب ، وقيام المحبة والإخاء ، وإشاعة العدالة ، وكفالة الحرية، وإقرار الأمن والسلام، والتزام العفة والأمانة، والامتناع من القتل والغضب والكذب والنفاق وما إلى ذلك من أفات))⁴ .

وعلى أي حال فإن الفلسفة الخلقية تدرس ظاهرة السلوك الانساني من حيث منابعه ودوافعه وغاياته، وتحدد القيم والقواعد العملية التي يجب مراعاتها في السلوك ، كما تدرس وسائل الالتزام والالتزام بالسلوك الخير ، ووسائل الابتعاد عن السلوك الشرير ..

وينبغي أن ننبه إلى أن الفلسفة الخلقية لا تهتم فقط بتقييم السلوك الإنساني ووضع المقاييس والمعايير التي يقوم على أساسها ، ولكنها تهتم أيضاً بإصلاح السلوك وعلاجه إذا انحرف ، ومن هنا فقد اتفق جبهة مفكري الإسلام على

¹ ينظر الدكتور زكريا إبراهيم : المشكلة الخلقية ص 54 .

² ينظر طاهر عبدالمجيد، من الفلسفة الإسلامية/2، ص40.

³ الدكتور توفيق الطويل : فلسفة الأخلاق ص18.

⁴ المصدر السابق، ص160.

اعتبار الرذائل أمراضاً نفسية تتطلب العلاج ، وهذا ما أدى إلى وجود وجه شبه بين الفلسفة الخلقية أو علم الأخلاق وبين علم الطب ، لأنه يعالج الجانب الروحي في طبائع البشر ، كما أن الطب يعالج الجانب العضوي ، ومن أجل هذا كان علم الاخلاق - عندهم - صناعة تستهدف علاج الأمراض وحفظ الصحة، وغاية تحقيق السعادة، لأنه يتناول بالدراسة ((الفضائل وكيفية اقتنائها، لتتحلى النفس بها ، والرذائل وكيفية تقويمها، لتتحلى النفس بها، والرذائل وكيفية توقيها، لتتحلى عنها كما قال حاجي خليفة))⁽¹⁾ وتجدر الإشارة إلى أن السلوك ليس هو بالضبط الخلق، لأن الخلق صفة داخلية أو باطنية، وأما السلوك فهو المظهر الخارجي له، فالسلوك دليل الخلق ومظهره . ويؤكد ذلك ما ذكره الإمام الغزالي في تعريف الخلق بأنه ((عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً))⁽²⁾ . ولعلنا نفهم من هذا أن كلمة ((خلق)) تشمل الخلق الحسن والخلق القبيح، ومن ثم لا بد من وصفه إذا أريد التمييز بينهما ، وقد وصفه الله - تعالى- في ثنائه على نبيه ﷺ - بقوله: ((وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ))⁽³⁾ ، إلا أننا نلاحظ أن الكلمة إذا أطلقت ولم توصف ، أريد بها غالباً الخلق الحسن، ومنه قولنا في الثناء على إنسان ما ((أنت رجل ذو خلق)) وإن كان المقام له أثر في تحديد هذا المراد .

وعلى أي حال فإن التعريف يشير إلى أن السلوك لا يكون خلقاً إلا إذا صار صفة راسخة وثابتة في النفس تصدر عنها الأفعال بدون مشقة وتكلف، بل بسهولة ويسر، فإذا لم تكن الصفة راسخة في النفس لا تعتبر خلقاً ، كوقوع الغضب من الحليم، وصدور المعصية من التقي وكذلك الفعل الذي يصدر من النفس بتكليف وعسر لا يعتبر خلقاً ، كتظاهر البخيل بالكرم والجبان بالشجاعة في بعض المواقف، فإن ذلك لا يصدر عنها إلا بمعاناة ومشقة . ومعنى هذا أن السلوك أو الفعل يكون خلقاً إذا صار عادة لصاحبه ، أو ميلاً مسيطراً عليه وملازماً له ، لا يفارقه إلا نادراً وقد عرف بعضهم الخلق فعلاً

¹ (المصدر نفسه.

² (ينظر الغزالي، إحياء علوم الدين ، ج 8 ، ص1434.

³ (القلم / 4 .

بأنه ((عادة الإرادة)) يعني أن الإرادة إذا اعتادت شيئاً فعادتها هي المسماة بالخلق⁽¹⁾.

فإذا اعتادت الإرادة الاعطاء - مثلاً - سميت هذه العادة خلق الكرم(2) وأياً ما يكن فإن السلوك الذي تتناوله الفلسفة الخلقية بالبحث والدراسة هو السلوك الواعي الصادر عن العقلاء بمحض إرادتهم ومطلق اختيارهم، فكل سلوك لا يتحقق فيه ذلك، لا يدخل في نطاق هذا الفلسفة، وكل فعل يصدر تحت عوامل القهر، أو الضغط النفسي والمادي لا يعتبر فعلاً خلقياً، ويتضح لنا هذا إذا عرفنا طبيعة الفعل الخلقى وأهم سماته، ونسارع فنقول :

الفعل الخلقى هو ((ذلك النشاط الإرادى الذي يترتب عليه أثر حسن أو أثر سيء، سواء بالنسبة إلى صاحبه، أو بالنسبة إلى الآخرين، أو بالنسبة إليهما معاً))⁽³⁾.

ومعنى هذا أن الفعل الخلقى فعل يستلزم التفكير، ويرمي إلى تحقيق غاية معينة، وهو بهذا يعتبر خاصاً بالإنسان وحده ، دون غيره من الكائنات الحية؛ لأنه هو الوحيد الذي يستطيع أن ينظر نظرة عقلية إلى ما يصادفه من إمكانيات في الحياة، ويوازن بينها، ويختار منها ما يحقق هدفاً أو غاية معينة له، ولهذا فإنه يستند إلى الإرادة الحرة ، وإلى شروط أو قيم أخلاقية سابقة عليها . وهذا الفعل - بعد أن يحدث - يصبح جزءاً من نسيج الوجود ، وحلقة من سلسلة التاريخ الوجودى للفرد ، لأنه أصبح ملكاً للواقع بعد أن حدث وانتهى وخرج عن إرادة صاحبه، ولا يمكن إصلاح ما انطوى عليه من عيب أو نقص، ومن هنا تكون خطورته ، ولكنه قبل أن يحدث يكون عبارة عن معرفة عقلية تقوم على قواعد ملزمة، وقيم موضوعية ذات أهداف مقصودة لذاتها ، وإرادة حرة ولذلك يرى ((هربارت)) أن الفكرة الخلقية تظهر لنا أول ما تظهر في صورة الأحكام التقديرية التي يحكم بها الناس على الإرادة والأفعال الإنسانية . فإذا تساءلنا عن السر في اهتمام المسلمين بالفكر أو الفلسفة الخلقية أدركنا أن ذلك يرجع إلى أمرين .

¹ (ينظر الاستاذ أحمد أمين : الأخلاق، ص 47.

² (المصدر السابق، ص48.

³ (انظر الدكتور زكريا إبراهيم ، المشكلة الخلقية ، ص 18 .

الأمر الأول:

أن الأخلاق تمثل هدفاً رئيساً للأديان السماوية، وبخاصة الإسلام، وهذا ما يبدو لنا من قول الرسول - ﷺ - ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))⁽¹⁾.

ومن الواضح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد جعل الأخلاق هي الغاية من رسالته، وأنه إنما جاء ليتمم البناء الأخلاقي الذي بدأتها الأديان السماوية السابقة، ومعنى هذا أن هدف الرسالات الإلهية كلها في المقام الأول هدفها أخلاقي، وقد ورد من الأحاديث ما يؤكد هذا المعنى، من ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - ((أكمل الناس المؤمنين إيماناً، أحسنهم خلقاً))⁽²⁾.

والحق أننا نرى الروح الأخلاقية سارية في كل جانب من جوانب الإسلام، ففي جانب العقيدة يرتبط حسن الخلق بالإيمان، ويتضح هذا من قول الرسول - ﷺ السابق ((أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)) . وقوله: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))⁽³⁾.

وفي جانب العبادات نجد أن الأخلاق غايتها وثمرتها، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والصوم يربى الإرادة ويهذب النفس ويخلصها من كثير من الأمراض النفسية كقول الزور والعمل به، فمن لم يترك قول الزور والعمل به فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، والزكاة تطهر النفس من الشح، وتنمي في الإنسان روح التضامن والتكافل، والحج يدعو إلى ترك الرفث والفسوق والجدال فيه، ويخلص النفس من أدرانها وأثامها.. وفي جانب المعاملات نجد الروح الأخلاقية سارية فيها، ويوضح ذلك قول الرسول - ﷺ - (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)⁽⁴⁾ وقوله (من غشنا فليس منا)⁽⁵⁾.

وفي جانب القيم والفضائل نجد أن الإسلام قد اشتمل على مكارم الأخلاق كلها، فقد بين الفضائل وحث عليها، وبين الرذائل ونهى عنها، قال - تعالى -: ((إِنَّ اللَّهَ

1 (الموطأ كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، 690/2.

2 أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم الحديث(4682).

3 أخرجه البخاري، كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم الحديث(13)، 73/1.

4 أخرجه البخاريين كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم الحديث(10)، 68/1.

5 أخرجه مسلم، في الإيمان باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا، 69/1.

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ((⁽¹⁾

والقرآن والحديث مليئان بخصال الخير التي يحث عليها الإسلام، وبخصال الشر التي ينهى عنها : وبذلك كان هذا البحث نموذجاً من القرآن والسنة كمصدر رئيس للفلسفة الإسلامية.

الأمر الثاني :-

أن مفكري الإسلام أدركوا أن الأخلاق تعتبر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للحياة الإنسانية سواء كان ذلك على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع ذلك أن الإنسان إذا ((حسن خلقه كان من نفسه في راحة، والناس منه في سلامة، وكثر مصادقوه، وقل معادوه فسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب))⁽²⁾، وكمل إيمانه، وصلاح دينه وصح عمله، وزاد خيره، ونال سعادته، والأحاديث كثيرة في هذا المجال، من ذلك قوله - ﷺ - عندما سئل عن المرأة التي تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها ((لا خير فيها، هي في النار))⁽³⁾، ومن هنا فإن الرسول ﷺ حثنا على حسن الخلق كما جاء في الأحاديث السابقة وكان صلوات الله وسلامه عليه إمامنا وقودتنا في التخلق بكمكارم الأخلاق وفضائلها.

والواقع أن الأخلاق تمثل حاجة أساسية للإنسان، وضرورة إنسانية لازمة لحياة المجتمعات وبدونها يصبح الإنسان ذنباً لأخيه الإنسان مما لا يتيسر معه إقامة حياة اجتماعية سليمة وتتضح حاجة الإنسان إليها إذا أشرنا إلى أن غرائزه متعددة معقدة غير سهلة، مركبة غير بسيطة، فمنها الفردي الذي يدفع إلى الأثرة والأنانية والبخل، ومنها الاجتماعي الذي يدعو إلى الإيثار والتعاون والكرم، ومنها ما يكون أن يهبط به إلى حضيض المادة، ومنها ما يمكن أن يسمو به إلى أفق الروح، ذلك أنه مخلوق مركب، في كيانه جزء أرضي، وجزء سماوي، هو جسد وروح، وشهوة وعقل، وإنسان وحيوان، وملاك وشيطان، قبضة من الطين ونفخة من روح الله، قال - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾⁽⁴⁾، ونظرا لاتصاله بعالم المادة وعالم الروح فقد

1 (النحل: 90 .

² (الماوردي : أدب الدنيا والدين ص216، دار الفرجاني ، القاهرة ، سنة 1983 م .

³ (أخرجه الحاكم في المستدرک، کتاب البر والصلة، رقم الحديث (7304)، 183/4 .

⁴ (الحجر/28 .

عرفه أحد الفلاسفة بقوله: ((الإنسان مواطن في عالمين)⁽¹⁾، ومن هنا كان في حاجة إلى الأخلاق لأنها توائم بين غرائزه، وتهذب طبيعته، وتوجهه إلى السلوك اللائق به في الحياة كأفضل مخلوق اختصه الله - تعالى - بالخلافة في الأرض، قال - تعالى - ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ⁽²⁾ 》 وجعل رسالته في الحياة عبادته - سبحانه - وطاعته قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ⁽³⁾ 》 .

إن الإنسان الذي يسعى إلى الارتقاء بذاتيته ، والسمو بإنسانيته ، يعاني صراعاً داخلياً بين جانبه المادي وجانبه الروحي، والأخلاق - وبخاصة المرتبطة بالعقيدة - هي التي تساعد في هذا الصراع، وتمكنه من انتصار الجانب الروحي فيه على الجانب المادي ، أو العقل على الهوى وبذلك يحقق ما يسعى إليه من السمو بإنسانيته، ثم تصبح الأخلاق بمثابة صراط مستقيم على الفرد أن يحفظ توازنه عليه، كي يعبر سالماً من حيوانيته الدنيا إلى إنسانيته العليا .

وربما كانت المعجزة الكبرى التي تصنعها الأخلاق هي أنها ترد للإنسان كرامته، وتحرك ما فيه من عنصر سمو وجلال، إلا أن ذلك لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا إذا كانت هذه الأخلاق مستوحاة من الدين ، وقائمة على أساس من العقيدة الصحيحة كما تتمثل في الإسلام ...

إذا كانت هذه فلسفة العقل البشري في فكرة الميثاق الاجتماعي ، فإن الله - تعالى - قد حقق ذلك للمجتمع الإسلامي عن طريق التشريعات الأخلاقية التي تضمنها الإسلام متمثلاً في القرآن الكريم والسنة النبوية .

المبحث الثالث: الأخلاق والإيمان .

الأخلاق في الإسلام هي شعبة من شعبه ليست منفصلة عنه، بل هي لبه ونتاجه، لأنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإيمان، وهي نابعة منه، ومتأسسة عليه، وهي تطبيق لتعليمه، وتجسيد لتوجيهاته، وانعكاس لقيمه ومعانيه، ومبادئه العليا ، وذلك لأن كل قيمة روحية خالصة هي بالضرورة قيمة خلقية سامية.

¹ انظر الدكتور يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ص 171 ، ط سابعة ، مكتبة وهبة بالقاهرة سنة 1998م.

² البقرة / 30 .

³ الذاريات / 56 .

إن الأخلاق الفاضلة في الإسلام تأتي مباشرة بعد الإيمان بالله - تعالى - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، إذ أنها تنبع من العبادة الخالصة المخلصة لله تعالى وحده وطاعته والانقياد إليه، وتسليم القلب له وتبرئته من كل ألوان الشرك فيه، وهي مجسدة " للإحسان " الذي يأتي بعد " الإيمان " .

إن الإيمان السليم والخلق القويم يضمنان للمؤمن ، بحق، سعادة، الدارين .
قال - تعالى- : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (1) .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (2) .

وقال عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ (3) .
وقال رسول الله - ﷺ - في تعريف " الإحسان " كنتم للإيمان والعبادة والخلق :
(أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (4) .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عليه أحداً بعدك ، قال : " قل آمنت بالله، ثم استقم " (5) .

والخلق السامي الكريم هو الثمرة الصالحة للإيمان الكامل لدى الإنسان المسلم الذي يستشعر حضور ربه - تعالى - الدائم في قلبه، ومراقبته له ووجوده معه أينما كان، وعلى أي حال كان : في السر والعلن، وفي الوحدة ومخالطة الناس .

قال - تعالى- : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (6) .
وقال - سبحانه- : ﴿ وَتَعْلَمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (7) .

¹ (فصلت/ 30 .

² (غافر/ 40 .

³ (فصلت: 33 .

⁴ (أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل ، رقم الحديث (37)، 143/1 .

⁵ (سبق تخريجه .

⁶ (الحديد/ 4 .

⁷ (ق/ 16 .

وعن أبي ذر قال : قال لي رسول الله - ﷺ - : " اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن " (1) .

والإنسان المسلم الذي كمل إيمانه لا بد وأن تكون أخلاقه : أي سلوكه وتصرفاته ومواقفه واتجاهاته ومعاملاته وعلاقاته - أكمل أخلاق الإنسانية وأرفعها وأعظمها وأجلها، بل يكون قدوة مثلى لمن يحيطون به ، وشعلة من نور تشع عليهم بالهدى والتقوى والعفة والفضيلة والخير والبر والمعروف، لأنه يراعي ربه - تعالى- في سره وعلا نيته ، ويغض الطرف عن المحارم ويتجنب المعاصي والفواحش ما ظهر منها وما بطن، عف اللسان، طاهر اليد، يحب لغيره ما يحب لنفسه لا يضرر السوء لأحد، معوان على الخير والتقوى، حريص على مصلحة الجماعة والأمة كحرصه على مصلحته الشخصية، ناشر للفضائل والمكارم ملتزم بها، ناه عن الرذائل والخصائص مجتنب لها يطابق عمله قوله ، ويجسد سلوكه ما يدعو إليه ، يفعل كل ما يستطيع فعله من خير ومعروف وإحسان ، وأن يمتد الأذى عن الطريق ، أو يقل كلمة طيبة : قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (2) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : (الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة : فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق) (3) .

إن الدين الإسلامي : قرآن كريم منزل، وسنة نبوية مبينة له، انفرادا بجماع الفضائل الخلقية السامية، التي ترفع الإنسان إلى مستوى إنسانيته الكاملة، كما أرادها المولى - تبارك وتعالى- مميزة له عن سائر المخلوقات الأخرى، وهي وإن كانت عنوان تفضيله وتكريمه فهي أيضاً مناط مسؤوليته وجزائه . قال - تعالى- : ﴿ وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (4) .

¹ (أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في معاشره الناس، رقم الحديث (1987)، 4/ 355 .

(2) يونس/ 62 - 64 .

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب شعب الإيمان رقم الحديث (35)، 1/ 63 .

(4) العصر: 1 - 3 .

وخلاصة القول لو أن الإنسان التزم هذا التشريع فكيف يكون حاله ، وما أحوالنا في كل وقت وبخاصة في هذا الوقت الذي كثر فيه الهرج والمرج، فلا أمن ولا أمان، ولا استقرار، كل ذلك سببه عدم التزام الأفراد بالتشريع الإسلامي، فهذه التشريعات شأنه تخريج الإنسان الكفو ذو الأخلاق والمرؤة ، فلو وجد فينا السياسيون الذين يتصارعون على السلطة يستمعون لهذا التشريع لا انحلت كل المشاكل، بل لما وجدت أصلاً، هذا هو الإيمان وتلكم هي الأخلاق التي نقرأها في هذه الأسطر .

مكانة الأخلاق في الدين الإسلامي:

فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم والسنة للأخلاق الفاضلة لم يعرف لها نظير في غيرها من الفلسفات القديمة والمعاصرة، بل هي تسبق العلم، وذلك لأن العلم الذي لا يستند إلى الخلق القويم، أو يعكسه في وسائله ونتائجه وتطبيقه، هو علم أعمى غاشم لا يرجى منه نفع ، بل قد يؤدي إلى الخراب والوبال .

وقد أعلى المولى سبحانه مكان الأخلاق ورفع شأنها وقدمها على غيرها في قوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (1) .

وذلك ثناء منه على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم- الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وعقد له جماع الإيمان والأخلاق ، وجعله أسوة حسنة للمؤمنين جميعاً ، ولا غرو فقد كان خلق الرسول الخاتم - ﷺ - تطبيقاً عملياً حياً تركه لنا في سنته المطهرة وسيرته العطرة لما ورد في القرآن الكريم من معاني لكمال الإنسانية، والقيم الخلقية السامية، وأسس الآداب الرفيعة الفاضلة .

عن يزيد ابن أبي موسى قال : قلنا لعائشة : يا أم المؤمنين كيف كان خلق رسول الله - ﷺ - ؟ قالت : "كان خلق رسول الله - ﷺ - القرآن" .
ثم قالت : اقرأ قد أفلح المؤمنون إلى العشر، فقرأ حتى بلغ العشر، فقالت :
"هكذا كان خلق رسول الله - ﷺ -" (2) .

1 (القلم/4 .

(2) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ، باب ذكر أخبار روي في شمائله على طريق الاختصار، 1/ 309 .

والآيات البينات التي وردت في سورة "المؤمنون" تجمع بين "الإيمان" و"الأخلاق" ولا يصح إسلام الإنسان إلا بالإيمان التام والخلق المستقيم اللذين يجمعان له خيري الدنيا والآخرة .
قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (1).

وأكد رسول الله - ﷺ - أهمية الأخلاق، وجعل لها المكانة الثانية بعد "الإيمان" باعتبارها (ثمرته الطيبة) - لارتباطها به أوثق ارتباط - وباعتبارها تجسيدا له وتطبيقا لمعانيه ودليلا على صحته وكماله .
والدعوة الإسلامية في حقيقتها دعوة إلى الإيمان والتوحيد، وهي دعوة إلى كمال الخلق الإنساني الكريم الذي يجمع كل الفضائل والمكارم والمحامد .
عن مالك بلغه أن رسول - الله ﷺ - قال : (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (2)
وقال أبو ذر : لما بلغه مبعث النبي - ﷺ - ، قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي فاسمع قوله ، فرجع فقال : (رأيته يأمر بمكارم الأخلاق) (3) .

وهكذا يتضح لنا أن الأخلاق الفاضلة هي غاية الدين الإسلامي الذي يرمي إلى بلوغها من خلال تكوين الشخصية السوية للإنسان المسلم الذي يصح إيمانه ولا يكمل إسلامه إلا إذا صلحت أخلاقه واستقامت في القول والعمل والتصديق والتطبيق ، والإقرار والممارسة .
قال - تعالى - : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (4) .

وقال - سبحانه - : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (5)

¹ (المؤمنون: 1 - 11 .

² (أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم الحديث (3357).

³ (أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق، رقم الحديث (5433) / 8 / 13 .

⁴ (الصف/ 2 - 3 .

⁵ (البقرة/ 44 .

وقال رسول - الله ﷺ - : (حسن الخلق نصف الدين)⁽¹⁾ .
فالأخلاق الفاضلة المحمودة في الدنيا من أعمال الجنة : قال رسول - الله ﷺ - :
(مكارم الأخلاق من أعمال الجنة)⁽²⁾ .

وأكد رسول الله - ﷺ - ، حبه لذوي الأخلاق الفاضلة ، وبشرهم برفقته في الجنة ، وبالقرب منه .
عن جابر أن رسول الله - ﷺ - قال : " إن من أحبكم إلي ، وأقربكم مني جليساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً " ⁽³⁾ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ ⁽⁴⁾ .

وخلاصة القول أن الأخلاق الفاضلة تحتل المكانة الأولى ، فهي أرفع مكانة وأجل منزلة في الدين الإسلامي ، وهي مكانة لم تبلغها في غيره من الأديان والشرائع والفلسفات القديمة والحديثة . ويكفيها سموا ورفعة أن الله تعالى يحبها وكذلك رسوله ويأمر بها .

قال رسول الله - ﷺ - : (إن الله تعالى يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها)⁽⁵⁾ .

ويكفيها علو شأن وجلال مقام ، أن جعل حسن الخلق من صفات الله الحسنى تحفيزاً للمؤمنين الصادقين في إيمانهم وإسلامهم على التحلي باستقامة الخلق ، وكسب الخلال الحميدة والصفات الكريمة ، والآداب السامية .

قال رسول الله ﷺ : (حسن الخلق من خلق الله الأعظم)⁽⁶⁾ .

فعل المسلم اليوم يقول إن ما نقرأه ونكتبه لا يعني شيئاً مع ما نلتزمه ونراه ، أقول : إن الشريعة الإسلامية قررت أحكاماً ورتبت عليها جزاء وعقاباً وبينت للفرد وللمجتمع طريقي الخير والشر فمن عمل بأي منهما ناله آثارها ، فآثار المعاصي وعدم الاكتراث بالإسلام هو ما نعاني منه اليوم ارجعوا إلى تشريعكم

¹ ذكره المتقى في كنز العمال، 3 / 49 .

² نفس المصدر السابق :/ ص130 ، رواه الطبراني في الأوسط عن أنس .

³ أخرجه الترمذي في سننه ، باب ما جاء في معالي الأخلاق ، رقم الحديث (370/4(2018).

⁴ النساء: 69 - 70 .

⁵ ذكره المتقى في كنز العمال/ برقم (5180)، 3 / 10 .

⁶ نفس المصدر السابق برقم (5140) 3/3.

صادقين في الرجوع سترون وتلاحظون ما يبهركم ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟.

وهذا ما نفتقده في مفهوم الفلسفات اليونانية القديمة، لأن مصدرها غير سماوي، بخلاف التشريع الإلهي الذي لا يأتيه الباطل ولا يتخلله الهوى والتشهي، وهذا هو الفارق بين الدين والفلسفة غير الإسلامية، ولو نظرنا لوجدنا أن الفلسفة غير الإسلامية هي وليدة العقل البشري المحدود الذي يخطئ ويصيب، أما الدين فهو أحكام قرآنية صادرة عن الحكيم العليم الذي قد أحاط بكل شيء علماً .

أهمية الأخلاق وشموليتها للأفراد والجماعات :

إن أهمية الأخلاق في نظر الفلسفة الإسلامية، لا تقتصر على الفرد، بل تتعداه إلى المجتمع وإلى الأسرة البشرية قاطبة .

وذلك لأن الأخلاق ضرورة إنسانية للفرد والجماعة معاً ، فكما أن إنسانية الفرد لا تكتمل إلا بالتقوى والاستقامة والخلق القويم بعد إيمانه بالله -تعالى- ، فإن المجتمع - كمجموع لعدد أفراد - لا تصلح حاله ، ولا تستقيم حياته، ولا يحفظ كيانه ، ولا يتم تماسكه ، إلا بانتشار مبادئ الهدى والتقى والعدل والخير والفضيلة في رحابه ، باعتبارها انعكاساً للأخلاق الكريمة التي يتحلى بها أعضاؤه ، والتي تكون أساس هيباته ومؤسساته ، ولب نظمته وبرامجه ومناهجه ، ومما لا شك فيه أن الأخلاق الفاضلة : هي حصن حصين يقي الفرد من الإثم والانحراف والضلال، ودرع متين يحفظ الجماعة من الفجور والفساد والانحلال ، بل يحمي البشرية جمعاء إن حافظت على القيم والمثل والمبادئ الكريمة ، من الزيف والضياع والدمار .

إن استقرار الحياة البشرية، في ماضيها وحاضرها، يؤكد لنا أنه ما من جماعة من الجماعات أو أمة من الأمم حادت عن سبيل الخلق الفاضل إلا وقعت في مهاوي الانحطاط وأصبحت مرتعاً للفواحش والخبائث، فحققت عليها كلمة الله - تعالى- فأذهب ريحها وقوض بنيانها، ودمرها تدميراً وما ظلمها ، ولكنها ظلمت نفسها بنفسها .

قال - تعالى- : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾⁽¹⁾ .

¹ (الإسراء/ 16) .

ومن أهم ركائز الأخلاق الفاضلة للجماعة : حفظ المحارم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، ومراعاة حدود الله - تعالى- واتباع أوامره ، واجتناب نواهيه : كما وردت في الذكر الحكيم، وكما بينتها سنة الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

هذا ما أكدّه المولى - سبحانه - في العديد من آيات الذكر الحكيم، قال - تعالى- : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أُنْبَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (1).

وقال - سبحانه - : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (2).

وقال - عز وجل - : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (3).

وقال - ﷺ - : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (4).

وهو ما وضعه رسول الله - صلى الله عليه- وسلم في سنته وتعاليمه وتوجيهاته للجماعة .

فعن أبي سبيد الخدري عن النبي - ﷺ - قال : (إياكم والجلوس في الطرقات) قالوا يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها ، قال رسول الله - ﷺ - : " فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه " قالوا وما حقه ؟ قال : " غض البصر ، وكف الأذى ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " (5).

وعن اليمان عن النبي - ﷺ - ، قال : " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم " (6).

¹ (النور/ 30 .

² (آل عمران:/ 104 .

³ (المائدة:/ 2 .

⁴ (النساء/ 13 - 14 .

⁵ (أخرجه مسلم، كتب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات، رقم الحديث(2121)، 1675/3.

⁶ (أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن وباب ما جاء في الأمر بالمعروف، رقم الحديث(2169) 4/ 468.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - : قال رسول الله - ﷺ - : ((لا تحاسدوا ولا تتاجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى هاهنا ، ويشير إلى صدره "ثلاث مرات" بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه))⁽¹⁾ .

وعن النعمان بن بشير يقول سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : "الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه"⁽²⁾ .

إن الفرد يفسد بفساد الجماعة ويصلح بصلاحها ، وإن الجماعة تتفكك بانحلال أفرادها وتقوى باستقامتهم وتقواهم ، ولذلك فقد ركز الدين الإسلامي على تربية كل من "الفرد" و "الجماعة" تربية خلقية سامية تستند إلى قوة الإيمان والعقيدة ، وتكون تجسيدا عمليا يعبر عنها بحيث يدعو الفرد جماعته إلى الخير والهدى ، وترد الجماعة أفرادها إلى سبل الرشاد والخلق الكريم ، ويسعى كلاهما معاً إلى تجسيد حياة فاضلة خالية من عوامل الضلال والتفسخ الخلقي والانحلال الاجتماعي .

قال - تعالى - : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾⁽³⁾ .

وعن تميم الداري أن النبي - ﷺ - قال : " الدين النصيحة "قلنا : لمن ؟ قال : (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)⁽⁴⁾ .

¹ (أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم ، رقم الحديث (2564) ، 1986/4 .

² (أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب الفتن ، باب الوقوف عند الشبهات ، رقم الحديث (3984) ، 2 / 1318 .

³ (آل عمران : 110 .

⁴ (أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان باب بيان أن الدين نصيحة ، رقم الحديث (55) 1 / 74 .

المبحث الرابع : الأخلاق وآليات رسوخها في النفوس .

تقدم في مفهوم الأخلاق ومعناها ، توضيح المعنى الذي نأخذ منه فلسفة التربية الإسلامية للأخلاق على أنه : هيئة في النفس راسخة تحركها من داخلها ليصدر عنها سلوكها ببسر وسهولة ، ودون أي تكلف أو تصنع ، وكأنها مجبولة عليه .

وقد أفردنا لهذا الموضوع فقرة خاصة به لأهميته وللتأكيد عليه، ولأن غاية الفلسفة الإسلامية أن ترسخ الأخلاق الفاضلة في النفس البشرية، بحيث تصدر عنها أفعالها وتصرفاتها وسلوكها ومواقفها واتجاهاتها المحمودة شرعاً وخلقاً وعقلاً، وهي تكتسي صفة "الطبع" لا صفة التطبع منبعثة من نية صافية وقصد شريف، وسريرة نقية ، وطوية سليمة، وقلب طاهر، وموجهة أساساً إلى نيل رضا المولى - تبارك وتعالى- في الدارين ، وإقامة شرعه في الحياة الدنيا لخير الفرد والجماعة والبشرية ، بعيدة عن شوائب الرياء والسمعة والزيف والخداع .

وذلك فإن الفلسفة الإسلامية في القرآن والسنة ترشد ببرامجها ومناهجها ونظمها وأهدافها وغاياتها ، وتوجه المربين والمسؤولين عنها - إلى الاهتمام بالتربية الخلقية منذ بواكير حياة الإنسان لكي ترسخ فضائل الأخلاق ومحمود الصفات وكريم الآداب في النفوس وتوصلها فيها وتثبت جذورها، وتنزلها بمنزلة الطبع والسجية والجبلة ، فيصعب بعدئذ اقتلاعها وانفراط عقدها وتصبح لدى الإنسان "طبعاً" حياً ملاصقاً لوازعه الداخلي طيلة حياته .

والإنسان بما زوده به الله - سبحانه - من عقل وإرادة وحرية واختيار ، مسؤول مسؤولية كاملة عن ضبط نفسه وتقويمها والتحكم في غرائزها وشهوتها ، وتقييد نزواتها وأهوائها، وترويضها على كسب الأخلاق الفاضلة والخلل الحميدة، والتعود عليها ، والحفاظ على قيمها الرفيعة ، والتحلي بالآداب الكريمة والصفات الحسنة والثبات عليها .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (1) .

¹ (النازعات/ 40 - 41 .

وقال - سبحانه- : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (1) .

وقال - عز وجل - : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (2) ، وقال- ﷺ - : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَبَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ (3) .

وقد بين الله - تعالى- للإنسان سبيل الخير والشر، وهذا لطف منه ورحمة ، وزوده بالقدرة على الفهم والوعي والتمييز، وخصه بالحرية والاختيار والإرادة وهو بذلك مسؤول عما تكسبه نفسه إن خيراً فثواب وإن شراً فعقاب . قال - تعالى- : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (4) .

وقال - سبحانه- : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (5) . وقال - عز وجل- : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (6) . وقال - ﷺ - : ﴿ مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزُرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (7) .

وقد أكد رسول الله - ﷺ - مسؤولية الإنسان ومبادراته الذاتية في مجاهدته لنفسه ونقدتها وتقويمها وضبطها وترقيتها وتركيتها وإعلانها ، وبحيث يمتلك زمامها فيقودها إلى الخير والفضائل ويردها عن الشر والردائل ، لا أن تملك هي زمامها ، فترميها المهالك . عن أبي هريرة - رضي الله عنه- أن رسول الله - ﷺ - قال: (المجاهد من جاهد نفسه) (1) .

¹ (الليل/ 5 - 10 .

² يوسف/ 90 .

³ (الأعلى/ 9 - 12 .

⁴ (الشمس/ 7 - 10 .

⁵ (البلد/ 8 - 10 .

⁶ (الإنسان/ 2 - 3 .

⁷ (الإسراء/ 15 .

وعن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ : " حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات" (2) .

ودعا رسول الله إلى غرس القيم والمبادئ والمثل والفضائل الدينية والخلقية في نفس الإنسان منذ السنوات الأولى من عمره حتى ترسخ وتصبح حالاً راسخة في نفسه يصعب انتزاع جذورها وهز قواعدها ، مهما لاقى في حياته بعد ذلك من تيارات الإغراء وحبال الإغواء .

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع" (3) .

وعن عمرو بن أبي سلمة يقول : كنت غلاماً في حجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانت يدي تطيش في الصفحة ، فقال لي رسول الله - ﷺ - "يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك" (4) .

إن النفس البشرية قابلة للتقويم والتعديل والتغيير من السيء إلى الحسن ثم إلى الأحسن ، بإرادة صاحبها ، وب عقله وبتميزه وبوعيه ، وبإحساسه بمسؤوليته الدينية والخلقية في الدنيا والآخرة وبأن عمله هو قوام جزائه ، فإن أحسن ، أحسن لنفسه ، وإن أساء فعليها ، وما الله - سبحانه - بظلام للعبيد .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (5) .

وقال سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (6) .

على أن النفس البشرية ، قد يسدل عليها حجاب الغفلة أو النسيان ، وقد تضعف فتزل بها القدم فتقع في بعض الآثام والمعاصي ، وقد وسعت رحمته كل شيء

¹ (أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً، رقم الحديث (1621)، 165/4 .

² (أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم الحديث (2822)، 2174/4 .

³ (أبو داود، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم الحديث (495) 1/ 133 .

⁴ (أخرجه البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام، رقم الحديث (5376) 7/ 68 .

⁵ (المدثر/ 38 .

⁶ (البقرة/ 286 .

، وسبقت غضبه ، ففتح لها باب التوبة والأوبة بالاستغفار والندم وعقد العزم على العودة عن ما وقعت فيه .

وهذا مما يميز الدين الإسلامي عن بقية الأديان بحيث لا يوجد في غيره من الأديان والشرائع والفلسفات ما يضمن للنفس البشرية عودتها إلى سبيل الحق والرشاد ، وعدم اسرافها في أمرها وإحساسها باليأس والقنوط مما يسبب لها احتقار الذات أو يزيد لها ضلالة وانسياقاً في مهاوي الهلاك بالخطأ أو الخطيئة بعض الأحيان .

قال - تعالى- : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّاهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (1) .

وعن أنس : قال رسول الله - ﷺ - "كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون" (2) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن المؤمن إذا أذنب، كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر ، صقل قلبه ، فإن زاد زادت ، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه (3) : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (4) .

وعن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : "الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة" (5) .

إن حرص الدين الإسلامي على جعل الأخلاق "هيئة راسخة في النفس" إنما هو لتحقيق "الغاية الخلقية" التي ترمي إلى تمكين الإنسان من بلوغ السعادة في الدارين : في الدنيا بالهدى والتقى والاستقامة والعفة والحق والعدل والخير والبر والإحسان والاستمتاع بزينه الحياة ولذائدها ومتعتها وطيباتها وفق ما شرعه الله - تعالى- قواماً للحياة البشرية ، وفي الآخرة بنيل جنة الخلد التي

¹ (آل عمران/ 135 - 136 .

² (أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم الحديث(4251) 2/ 1920 .

³ (أخرجه بن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم الحديث(4244)، 2/ 1418 .

⁴ (المطففين/ 14 .

⁵ (أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، رقم الحديث(6309)، 8/ 60 .

فيها من النعم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وذلك هو الفوز العظيم للمؤمنين الصادقين المتقين .
قال - تعالى:- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ (1) .

القيم الخلقية المكتسبة قابلة للتغيير .

إن القيم الخلقية سواء كانت كلية ثابتة أو كانت مكتسبة متغيرة ، ذات تأثير كبير على شخصية الإنسان وتوجيه سلوكه وتصرفاته ومواقفه واتجاهاته في الحياة ، وقدرته على التكيف مع ظروف بيئته الاجتماعية والطبيعية وعواملها . ولا شك أن القيم الخلقية تتأثر في تكوينها وبنائها، بشكل أو آخر بالمكونات الذاتية للإنسان كالذكاء والقدرات العقلية والدوافع الفطرية والمزاج النفسي وما إليها ، وبالمكونات البيئية المتمثلة في الدوافع والحاجات النفسية المكتسبة ، وفي العملية التربوية والتعليمية ، وفي التوجيه والنصح والإرشاد والقُدوة والمران والتدريب والخبرة والتجربة والممارسة وما إلى ذلك .
وإذا كان المولى - عز وجل- قد شرع قدراً من القيم الخلقية المطلقة الكلية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل باعتبارها أمهات الفضائل والآداب والمكارم، وجعلها قوام الحياة الفاضلة للفرد والجماعة والبشرية قاطبة ، وهذه القيم الخلقية المطلقة محمودة دينياً وخلقياً واجتماعياً وإنسانياً؛ لأنها ذات صبغة تطبيقية للقيم المطلقة ، وتتعلق بمدى استجابة الفرد لها ، ومدى تمسكه بها ومدى رسوخها في وجدانه وينعكس هذا كله في سلوكه وتصرفاته ، ومواقفه واتجاهاته .
وتدخل القيم الخلقية المكتسبة تحت دائرة مسؤولية الإنسان وإرادته واختياره ؛ لأنه قادر على ترقيتها حتى يصل بها أعلى درجات الكمال الخلقى والإنساني ، أو يتدنى بها إلى مستوى الانحطاط الحيوانى .
وقابلية الأخلاق المكتسبة للتغيير والتعديل تعتبر ميزة تربوية إيجابية كبرى ، لأنها تمكن حتى أولئك الأفراد الذين اتصفوا بقبح السلوك وسيء التصرفات من أن "يغيروا" أخلاقهم من السيء إلى الأحسن، ومن المشين إلى الممدوح بمجاهدتهم لأنفسهم وضبطها وتقويمها ورياضتها وترويضها على فعل الخيرات وإبتاء الحسنات .

¹ (التوبة: 72 .

وتوجه الفلسفة الإسلامية في القرآن والسنة، "العملية التربوية" بنظمها ومناهجها التربوية التعليمية وبرامجها التوجيهية والإرشادية، وأنشطتها المكملية الأخرى، كما ترشد المربين والمسؤولين عنها إلى مساعدة الفرد والجماعة على تغيير الصفات والقيم الأخلاقية المكتسبة وتعديلها التعديل المرغوب فيه دينياً واجتماعياً وإنسانياً، حتى يقترب من تحقيق الكمال الإنساني المنشود .

قال - سبحانه- : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (1)

وقال - سبحانه- : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (2).

وعن أبي ذر قال : قال لي رسول الله - ﷺ - : "اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن" (3) .

وعن النواس بن سمعان الأنصاري قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- عن البر والإثم ، فقال : "البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس" (4).

وعن الحسن بن عليقال حفظت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : "دع ما يريبك إلا ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة" (5) .

وعن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : "من رأى منكماً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان" (6) .

وخلاصة القول إن الدين الإسلامي جعل التوبة والرجوع إلى جادة الصواب أمر لا يمكن إغفاله فالباب مفتوح للتائبين وإن أخطأوا ، فالخطأ متوقع من الإنسان وفي أي وقت إلا أن الرجوع هو علاجه، فكيف يتصور إذا أقفل باب

¹ (الرعد/ 11 .

² (الأنفال/ 53 .

³ (أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في معاشره الناس، رقم الحديث(1987)، 4/ 355.

⁴ (أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم، رقم الحديث(2553) 4/ 1980 .

⁵ (أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الإحسان والعفو رقم الحديث (2007)، 364/4 .

⁶ (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان رقم الحديث (49) 1

. 69/

الرجوع والتوبة ، وما مصير الحياة البشرية حينئذ؟ فوجد العلاج حتى لا تقنط النفوس المخطئة ، فلها أن تتخرط في مجتمعا وأن تصلح من شأنها وشأنه فكفى بالشريرة علاجاً وكفى بها سعادة .

المبحث الخامس : غاية الأخلاق الإسلامية السعادة في الدارين.

إن ما ترمي إليه "الأخلاق" في الدين الإسلامي أساساً هو نيل رضا الله - تعالى- ورحمته ونعيمه في آخرة باقية، وعد الله بها عباده الصالحين المتقين الذين تجسد أخلاقهم عقيدتهم ويعكس سلوكهم إيمانهم وتطابق استقامتهم عبادتهم .

قال- تعالى- : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (1) . وقال - سبحانه - : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ (2) . وقال - عز وجل- : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (3)

وقال رسول الله - ﷺ - : " مكارم الأخلاق من أعمال الجنة" (4) . وقال عليه الصلاة والسلام : "إن من أحبكم إلى وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً" (5) .

وإلى جانب، ذلك فإن الأخلاق في الدين الإسلامي ترمي إلى تحقيق سعادة الإنسان في حياته الدنيا أيضاً ، وذلك بمراعاتها لفطرته البشرية، وإشباعها لدوافعه الطبيعية وحاجاته المكتسبة بالطريق السوي المشروع ، فهي لا تमित غرائزه ولا تطلق لها العنان ، ولا تخنق مطالبه ولا ترخي لها الزمام ، ولكنها توازن بشكل حكيم وعادل ومنسجم بين شواغل روحه وحاجات نفسه، وبين تطلعات عقله ومطالب عاطفته ، فتطيب له ويهدأ باله وتتحقق له سعادة الدنيا .

¹ (الفتح/ 29

² (الرعد:/ 35.

³ (السجدة/ 17 - 18 .

⁴ (ذكره المتقى في منتخب كنز العمال، برقم (5128)، 2/ 3 .

⁵ (أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم الحديث (2018)، 370/4 .

ولذلك فإن الأخلاق الإسلامية لا تعتبر الدنيا في حد ذاتها ، ولا هي تتجاهلها وتنكر مؤثراتها على الإنسان، بل تعتبرها مطية إلى دار أبقى منها وأدوم وأخلد ، وما الدنيا إلا دار بلاء وامتحان للإنسان.

قال - تعالى- : ﴿ وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ (1) .
وقال - سبحانه - : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (2) .
وقال - عز وجل - : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (3) .

وكما تلزم الأخلاق الإسلامية الفرد بأن يقوي عقيدته ويحسن ويخلص في طاعته ، ويهذب نفسه ويرقي وجدانه ويهتم بصحته النفسية والبدنية بإشباع غرائزه وحاجاته بالطريق المتزن المشروع فإنها تلزم الجماعة بأن تقيم صرحها وتشيد بنيانها وتؤسس علاقات أعضائها على : الإيمان والهدى ، والاستقامة والفضيلة ، والعدل والمساواة، والمحبة والإخاء، والبر والتقوى، والخير والتعاون، والتكافل والتضامن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (4) .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (5) .
وقال عز وجل : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (6) .

¹ (الضحى/ 4 .

² (النحل/ 97 .

³ (القصص: 84.

⁴ (آل عمران/ 103 .

⁵ (آل عمران/ 104 .

⁶ (المائدة: 2 .

وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله - صلى عليه وسلم- : "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"⁽¹⁾

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : "ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً"⁽²⁾ .
وعن أبي موسى عن النبي - ﷺ - قال : "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ثم شبك بين أصابعه"⁽³⁾ .

وعن حذيفة بن اليمان عن النبي - ﷺ - قال : "والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم"⁽⁴⁾ .

فالأخلاق الإسلامية لا تبنى إلا على التقوى والاستقامة وخشية الله - تعالى- ومراعاته في كل الأحوال، ولو تحلى بها كل أفراد الجماعة لرفرفت على حياتهم، وعلى حياة الجماعة كلها السعادة وعمها الأمن والسلام .
إن القيم الخلقية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعقيدة المسلم وعبادته ، وهي نتيجة لازمة لهما منطقياً وعملياً، تنعكس في سلوكه وتصرفاته ومواقفه واتجاهاته ، وتعتبر مناط مسؤوليته وجزائه في شتى مناشط حياته .

¹ (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، رقم الحديث(2586)، 4/ 1999.

² (المصدر نفسه، باب تحريم الظن، رقم الحديث(2563).

³ (أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، رقم الحديث(6026).

⁴ (أخرجه الترمذي، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم الحديث(2169) .

الخاتمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد.

فقد حاولت فيما سبق بحثة تقديم نماذج من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في بناء الفلسفة الأخلاقية فتيبين لنا أن الأخلاق ضرورة من ضروريات نهضة الأمم ورقبها وتماسكها وأن انهيار الأخلاق وغيابها معناه انهيار الأمم وضياعها وذلتها وهوانها، وقد فطن أعداؤنا إلى هذه الحقيقة فسعوا بكل الطرق والوسائل وبذلوا غاية جهدهم من أجل إفساد أخلاق المسلمين .

النتائج والتوصيات

- إن الأخلاق الإسلامية مبنية على الالتزام والاستقامة وخشية الله - تعالى - ومراعاته في كل الأحوال ، ولو تحلى بها الكل لرفعت عليهم السعادة وعمهم الأمن والسلام .

- إن القيم الخلقية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعقيدة المسلم وعبادته ، وهي نتيجة لازمة لهما منطقياً وعملياً ، وتتعاكس في سلوكه وتصرفاته ومواقفه واتجاهاته ، وتعتبر مناهج مسؤوليته وجزائه في شتى مناشط حياته .

- تهتم الفلسفة الإسلامية في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، اهتماماً كبيراً " بالمسؤولية الخلقية " وتؤكد .

ولذلك فهي ترشد " العملية التربوية " بأساليبها وبرامجها ومناهجها وأهدافها وغاياتها والقائمين عليها من آباء ومربين - إلى ضرورة تنشئة الفرد المسلم منذ بداية حياته ، وتكوين استعداداته العقلية والنفسية للتلقي والتعلم والاكتساب - على الأخلاق القويمة والآداب الكريمة والفضائل المحموده والمبادئ والقيم والمثل العليا المرغوبة ، حتى يتكون لديه " الضمير الخلقى " الحسى ويتحمل مسؤوليته الخلقية .

ومن كل ما تقدم : يتضح لنا أن المسؤولية الخلقية في الدين الإسلامى لها وجهان يصلح بكل منهما صلاح الآخر ويقاسمه الخسارة ، وهما المسؤولية الفردية ، والمسؤولية الجماعية .

التوصيات

تؤكد " الفلسفة الإسلامية في القرآن والسنة " على جملة من الخصائص والمميزات والسمات التي تختص بها " عملية التربية " في الإسلام دون سواها ، وتدعو إلى الاهتمام بها ومراعاتها في تربية الناشئين منذ صغرهم ، وتوجه إلى دعمها وتعزيزها من خلال الوسائل والبرامج والمناهج والنظم التعليمية

والتربية على النحو الذي يكفل تشكيل "الشخصية الإنسانية" السوية المتصفة بالاتزان والمقدرة والقوة والكفاءة والكفاية . وبدون مغالاة ، نرى أن " الفلسفة الإسلامية" هي فلسفة تربية صالحة لكل " انسان" وفي كل مجتمع انساني – وفي كل زمان ومكان ، لأنها مستمدة من كتاب الله - تعالى- الذي نزل تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولأنها مستوحاة من السنة النبوية المطهرة وهي فيض من نور الله عز وجل.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا

فهرس المصادر

أولا : القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

ثانيا : كتب الحديث.

- 1- ابن ماجه / السنن / جزاءن / حقق نصوصه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي / نشر دار إحياء الكتب العربية / مصر 1952م .
 - 2- أبوداود / السنن / 4 أجزاء / دار الكتاب العربي / بيروت .
 - 3- البخاري / الصحيح / 9 أجزاء / دار مطبعة الشعب / مصر .
 - 4- البيهقي / دلائل النبوة / الجزء الأول / تقديم وتحقيق : عبدالرحمن محمد عثمان / القاهرة / 1969م .
 - 5- الترمذي / الصحيح / 13 جزء / دار العلم للجميع / سوريا .
 - 6- الدارمي / السنن جزاءن / نشر دار إحياء السنة النبوية .
 - 7- مالك ابن أنس / الموطأ / دار الحديث القاهرة / ط2 / 1997 .
 - 8- المتقى / منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال / مطبوع بهامش مسند أحمد بن حنبل / 6 أجزاء / ط1 دار الصياد للطباعة / بيروت 1969.
 - 9- مسلم / صحيح مسلم / دار الحديث القاهرة / ط4 / 2001.
- بيروت .

ثالثا : الكتب التربوية والفلسفية والمراجع اللغوية:

(أ)

أبوحامد الغزالي

- احياء علوم الدين/ دار احياء الكتب العربية/مصر.

ابن منظور

- لسان العرب/ دار صادر بيروت/

أحمد أمين

- الأخلاق/ المطبعة الرحمانية/ ط2/ مصر/ 1921.

أحمد فؤاد

- التربية في الاسلام/ مطبعة الحلبي مصر.

البراشي محمد عطية :

- التربية الإسلامية وفلاستها / ط2 / مصر 1969 م .

- روح التربية التعليم / ط11 / مصر 1966 م .

(ب)

البيهقي

- دلائل النبوة /تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان/ القاهرة/ 1969.

بركات محمد خليفة :

- عيادات العلاج النفسي / ط2 / مصر .

د - بنت الشاطئ عائشة عبدالرحمن :

- الشخصية الإسلامية : دراسة قرآنية / ط1 / دار العلم للملايين / بيروت

1973م.

(ج)

د. جلال ، سعد :

- المرجع في علم النفس / ط3 / مصر 1963 م .

د- الجمالي ، محمد فاضل :

- تربية الإنسان الجديد / تونس 1967 م .

(ز)

الزركلي خير الدين:

- الأعلام / ط3.

د. زكرياء ابراهيم:

- المشكلة الخلقية/دار مصر للطباعة/ط3.

(ط)

طاهر عبدالمجيد:

- من الفلسفة الإسلامية/مطبعة دار التأليف/ مصر / 1969.

د. الطويل، كمال:

أسس الفلسفة ط6 / دار النهضة العربية/ القاهرة 1976.

(ف)

الفيروز آبادي:

- القاموس المحيط/ مؤسسة الرسالة/ ط6/ 1998.

(ق)

القرضاوي يوسف:

- الإيمان والحياة/مكتبة الوهبة القاهرة/ ط7/ 1980.

(م)

محمد ناصر:

- الفكر التربوي العربي الاسلامي.

الماوردي:

- أدب الدين والدنيا/ دار الفرجاني/ القاهرة/ 1983.

مجلة الزهر المجلد العشرون